كيف ننتصر ؟

بقى علينا - وقد عرفنا علّة الهزيمة وأسبابها العميقة - أن نعرف كيف نمحو عارها ونحقق أمل النصر ؟

● تحديد الهدف أولاً :

وقبل أن نبحث عن طريق النصر يجب علينا أن نتبين الهدف الذى نريده ونحرص على تحقيقه مهما يكلفنا من تضحيات . فإن وضوح الهدف وتحديده شرط ضرورى لمعرفة الطريق الموصلة إليه ، والوسائل المعينة على تحقيقه .

لقد رأينا بعد النكبة الثانية شعاراً يرفعه بعض الناس وهو « إزالة آثار العدوان » ، وركزت الأجهزة الدعائية على هذا الشعار ، حتى أصبح وكأنه الهدف المنشود ، والأمل الموعود .

فهل هذا هدفنا فى قضية فلسطين ، وهل هذا هو ختام المطاف فى مأساة الوطن السليب ، أن تتراجع إسرائيل إلى حدودها قبل الخامس من « حزيران » إن تكرمت بالرضا والقبول ؟

هذا ما يتبناه الواقعيون ، ويدعون إليه همساً إن لم يجدوا الشجاعة ليعلنوه جهراً .

إن إزالة آثار العدوان واجب ، وتحرير القناة والقنطرة والسويس وسيناء وغزة والضفة الغربية والجولان واجب ، ولكنه ليس هو الهدف . الهدف أبعد من ذلك وأكبر . والتركيز على إزالة آثار العدوان - فقط - معناه نسيان العدوان القديم بالعدوان الجديد . أى أن كل عدوان تكسب من ورائه إسرائيل أرضاً أو وضعاً ، يضفى الشرعية على ما كسبته من عدوانها السابق أو الأسبق ، وتحول كل الجهود إلى تصفية آثار العدوان الجديد . وهذا أعظم كسب لإسرائيل .

لقد رفض العرب قرار تقسيم فلسطين ، ثم ضمت إسرائيل بالقوة إليها أرضاً أكثر مما أعطاه لها قرار التقسيم . فعاد بعضنا يطالب أن تتراجع إسرائيل إلى الحدود التى تضمنها التقسيم ، حسب قرار الأمم المتحدة .

ثم كسبت إسرائيل فى عدوان سنة ١٩٥٦ حرية المرور فى مياه العقبة ، فقام مَن ينادى بأن تنسحب إسرائيل إلى ما قبل حرب ١٩٥٦ وتتخلى عن مكاسبها تلك .

ثم كانت نكبة الخامس من « حزيران » ، فعادوا يطالبون بانسحاب إسرائيل إلى ما قبل ٥ « حزيران » . وهكذا كل يوم نخسر وتكسب إسرائيل ، ونعترف نحن ضمنياً - بهذا الكسب القائم على الإثم والعدوان .

أما نحن فنرى أن إسرائيل بناء لبناته من العدوان ، وأساسه من العدوان ، وأعمدته وسقوفه من العدوان ، والعدوان كله لا بد أن يهدم ويزول . ولا حق له فى البقاء والاستمرار ولو كره المجرمون .

أم يكون هدفنا هو إعادة اللاجئين الذين شردوا من ديارهم بغير حق أو توطينهم وتعويضهم بما يناسب خسارتهم ؟

أما توطين اللاجئين فى أى مكان فى مقابل تعويضهم عن وطنهم بمقدار من المال يقل أو يكثر ، فهو خيانة كبرى للوطن وللأمة وللدين . فوطن المسلم لا يُباع ولا يُعوض بالمال وإن كان ملء الأرض ذهباً . والوطن ليس ملكاً لجيل من الأجيال حتى يقبل هذا الجيل المساومة عليه ، والمعاوضة عنه ، وهو ليس ملك السكان وحدهم حتى يفرطوا فيه لو أرادوا ، إنما هو ملك الأمة الإسلامية كلها ، وملك الأجيال الإسلامية جميعاً . ولو افترضنا جدلاً أن أبناء فلسطين فرَّطوا فى وطنهم وقبلوا أن يُعَوضوا عنه بالدولار أو الاسترلينى لكان من واجب المسلمين كافة أن يقولوا لهم : كفوا أيديكم فليس هذا من حقكم .. أن تفرطوا فى أرض روتها دماء الصحابة والتابعين وضم ثراها رفات الألوف من الشهداء ، منذ عهد عمر وصلاح الدين إلى يومنا هذا .

أما إعادة اللاجئين إلى ديارهم ، ورد أملاكهم وأرضهم وبيوتهم وبيَّاراتهم وكرومهم إليهم ، فهو أمر واجب ، ولكن تحت أى سلطان يعودون ؟ أيعودون تحت حكم إسرائيل وعلم إسرائيل ؟

إن إسرائيل إن قبلت هذا ورضيته صادقة ، فإننا لا نقبله ولا نرضاه ، فكيف يجتمع اللص وصاحب البيت تحت سقف واحد ؟

إن عودة صاحب الدار إلى داره يقتضي أولاً أن يطرد منها اللصوص وقُطّاع الطريق ومعنى هذا هو قبل كل شيء طرد إسرائيل .

ليس هدفنا مجرد إزالة آثار العدوان ولا توطين اللاجئين أو إعادة اللاجئين ، أفهل ترى يكون هدفنا إقلاق أمن إسرائيل ؟

لا ريب أن إقلاق أمن إسرائيل ، والعمل على تخريب مرافقها ، وإشعارها بالخوف والخطر ، كل ذلك أمر واجب ، وما تقوم به المنظمات الفدائية في هذا السبيل هو جهد مشكور وجهاد مبرور ، متى ابتغى به وجه الله عزّ وجلّ .

ولكن ليس هذا هو الهدف ، إننا نريد شيئاً بعد ذلك وفوق ذلك . نريد ما هو أكبر وأعمق وأخطر من ضرب المنشآت ، وقتل الدوريات وتهديد طرق المواصلات .

نريد محو العدوان من جذوره ، العدوان الذي قام على القوة الغاشمة والاغتصاب الظالم الأثيم . نريد محو إسرائيل ، وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الهجرات اليهودية الجَماعية إلى فلسطين .

هذا هو هدفنا الذي لا نعدل عنه ولا نفرط فيه ، ولا نساوم عليه ،

ولا نستخفى به ، ولا نتخلى عن الإيمان به والدعوة إليه ، والجهاد فى سبيله ، ولو تمالأت علينا الدنيا كلها ، وخذلتنا معسكرات الشرق والغرب ، وخانتنا حكومات اليمين واليسار .

* * *

● دعاة الواقعية المنهزمة :

يقول بعض الناس : إن محو إسرائيل حلم بعيد المنال . فلنكن واقعيين ولنعترف بما هو كائن ، ولنطلب التعايش السلمى مع إسرائيل . وخاصة أن إسرائيل ليست وحدها . فإن وراءها قوى عالمية تحركها الصهيونية بنفوذها ودولاراتها ولا زالت تعلن هذه القوى : إن إسرائيل خُلِقت لتبقى .

ونقول : إن هذه « الواقعية » هى بداية الهزيمة . بل هى الهزيمة عينها . وليس أقر لعين الباطل من أن نعترف بوجوده ، ونتعامل وإياه على أساس الواقع .

وأول طريق النصر أن تقتل العدو فى نفسك ، وأن تسقطه من قلبك ، نحن نقر بأن هدفنا بعيد وبعيد إذا ظللنا على ما نحن عليه ، وإسرائيل عندئذ ستبقى وتبقى .

ولكن هدفنا سيتحقق إذا نحن آمنا به ، ورسمنا له الطريق القويم . ولن يكون زوال إسرائيل أعظم من زوال الصليبيين ، وقد

وطدوا أقدامهم فى فلسطين حوالي قرنين من الزمان ، وسقط بيت المقدس فى أيديهم ٩٢ عاماً . وظن الناس باللّه الظنون ، وخيل إليهم أن عَلَم الإسلام قد طوى من تلك الأرض المقدسة إلى الأبد .

وما هو إلا أن ظهر القائد الذى جمع الشتات ، وأحيا الموات ، وجدد الإيمان فى القلوب ، فاستيقظ الأمل فى الصدور ، وانجابت غشاوة اليأس عن الأنفس فكانت « حطين » . وكان فتح القدس على يدى السلطان التقى العادل صلاح الدين .

يقول ابن كثير فى تاريخه « البداية والنهاية » عند ذكر يوم حطين : « إنه لم يُسمع بمثل هذا اليوم فى عز الإسلام وأهله ، ودمغ الباطل وأهله ، حتى ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج ، قد ربطهم بطنب خيمة (حبل) .. وباع بعضهم أسيراً بنعل ليلبسها فى رجله .. وجرت أمور لم يُسمع بمثلها إلا فى زمن الصحابة والتابعين » .

وليت شعرى أيها السادة الواقعيون .. أيهما أبعد عن التحقق وأغرق فى الخيال ؟ إزالة إسرائيل وهى جزيرة صغيرة فى بحر من الكراهية والمقاومة العربية والإسلامية أم إقامتها منذ أكثر من سبعين عاماً ولم يكن فيها إلا بضعة آلاف من اليهود يعدون أقلية ضئيلة لا وزن لها ولا اعتبار ؟

لا شك أن إزالتها الآن أقرب من حلم إقامتها يوم انعقد المؤتمر

الصهيونى الأول فى « بال » سنة ١٨٩٧ برياسة « هرتزل » الذى عاد من المؤتمر يقول بكل ثقة وغرور : « لو طُلِب إلىّ تلخيص أعمال المؤتمر فإنى أقول .. بل أنادى على مسمع من الجميع .. إننى قد أسست الدولة اليهودية . وقد يثير هذا القول عاصفة من الضحك هنا وهناك ولكن العالَم سيشهد بعد خمسين عاماً قيام الدولة اليهودية حسبما يمليه إيمان اليهود بأن تنشأ لهم دولة .. » .

ومن العجائب أنه بعد خمسين عاماً بالفعل ، وعلى وجه التحديد فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ أعلنت الأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين وقيام إسرائيل .

وبعد سبعين عاماً تحقق الحلم الذى اتخذه اليهود شعاراً من قديم « العام القادم فى أورشليم » ودخلوا أورشليم ودنسوا بيت المقدس ، حرم المسلمين مسرى النبى الكريم .

* * *

● هذا هو الهدف فما الطريق ؟

إذا عرفنا الهدف وحددناه ، وهو إزالة الجرثومة الإسرائيلية من جسم العروبة والإسلام .. فما الطريق إلى هذا الهدف ؟

١ - المحافل الدولية :

يرى فريق من الناس أن الطريق هو الاعتماد على الضمير العالَمى .. على المحافل الدولية ، على العمل الديبلوماسى فى

ردهات الأمم المتحدة .. فقد جربنا الجيوش واستعمال القوة فى حربين كبيرتين ، فلم نجن فى كل مرة إلا الصاب والعلقم فلم يبق إلا الحل السلمى ، الحل السياسى ، ودعونا من التهور والمخاطرات الانتحارية .

ولا أدرى نسى هؤلاء أو تناسوا موقف هذه المحافل الدولية منا ، أكثر من عشرين عاماً ، ونحن نخطب فى ردهاتها ، ونتصل بمندوبيها ، ونقدم إلى مؤسساتها الشكوى تلو الشكوى ، ما بين شديدة اللهجة ومعتدلة وخفيفة - حسب خطورة العدوان الواقع علينا ومقداره - فهل أنصفتنا هذه المحافل ؟ وهل وقفت بجانبنا ؟ وإذا وقفت مرة بجانبنا فهل خطت خطوة تنفيذية ؟ كلا ، لقد كنا معها مثل عُبَّاد الأصنام مع آلهتهم ، الذين وصفهم القرآن فأبلغ الوصف : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا اسْتَجَابُواْ لَكُمْ ﴾ (١) .

إن الذهب اليهودى والنفوذ اليهودى يلعب فى هذه المحافل دوراً خطيراً ، فالذمم والأصوات تُشتَرى وتُباع فى سوق المساومات الدولية ، وبريق الدولارات والمعونات العلنية والخفية ، والتهديد بكشف فضائح الحكام واتفاقاتهم وأسرارهم ، كل ذلك يعمل عمله فى إخضاع الرقاب ، وكسب المؤيدين .

---

(١) فاطر : ١٤

والذى يطلع على المناصب الكبرى فى هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها سيكتشف أن الأخطبوط اليهودى الصهيونى يسيطر عليها ويوجهها خفية وجهاراً .

ولنراجع - على سبيل المثال - كتاب أسرار الماسونية للچنرال التركى « رفعت أتلخان » من (ص ٤٣ إلى ص ٥٠) . وكتاب « خطر اليهودية العالمية » للقائد العربى عبد الله التل ، الفصل الثالث عشر .

* *

٢ - الاعتماد على أحد المعسكرين :

ويقول فريق آخر : إن الطريق السليم هو الاعتماد على أحد المعسكرين الدوليين المتنازعين والاستفادة من هذا التنازع فى استرداد حقنا .

وقد أثبت الواقع أن الاعتماد المطلق على ذلك خرافة كبيرة .

فأما المعسكر الغربى ، فلا جدال فى أنه الذى خلق إسرائيل ، وأمدها بأسباب الحياة والبقاء بعد خلقها ، ولا فائدة ترتجى منه .

وأما المعسكر الشرقى ، فصلته بالصهيونية ، منذ قامت الثورة البلشفية فى سنة ١٩١٨ لا تخفى على دارس .

ودوره فى خلق إسرائيل وإبقائها ونضاله فى المعترك الدولى من أجلها لا يخفى أيضاً على أحد ممن لم يفقدوا ذاكرتهم » [1] .

ومهما يكن من خلاف بين المعسكرين فقد أعلن قادتهما : أن إسرائيل إنما خُلِقَت لتبقى .

إن المعسكر الشيوعى - وأعنى بالذات الاتحاد السوفييتى - يقف مع العرب إلى مدى محدود مثل إدانة الاعتداء الإسرائيلى الأخير . وقد يساعد بأسلحته وخبراته بعض الدول العربية الموالية له فى زحزحة إسرائيل عن المناطق التى احتلتها أخيراً كالشاطىء الشرقى لقناة السويس وسيناء مثلاً ، لكسب نفوذ له ولدعوته ومذهبه وعملائه فى داخل بلادنا .

ولكن لن يخطو معنا أكثر من هذا . لن يؤيدنا فى هدفنا الأصيل وهو تحرير فلسطين العربية المسلمة ، والذى ليس له معنى إلا محو دولة إسرائيل من الشرق العربى .

ومهما يكن الموقف السياسى للاتحاد السوفييتى ودول أوروبا الشيوعية من الاعتداءات الإسرائيلية على العرب ، فإن النظرة العقائدية الشيوعية إلى إسرائيل « كبلد رسخت فيه قواعد النظام الاشتراكى السليم » معروفة من قديم ، ولم تتغير .

---

(١) انظر : كتاب « موسكو وإسرائيل » وهو دراسة مؤيدة بالوثائق لدور موسكو فى خلق إسرائيل وإبقائها . تأليف الدكتور « عمر حليق » .

ويمكننا معرفة هذه النظرة من خلال رأى الأحزاب الشيوعية فى مشكلة فلسطين المحتلة ، وهو رأى طالما رددته هذه الأحزاب ولا زالت ترده صحفها فى أوروبا .

وفى سنة ١٩٦٦ نشرت مجلة « رينا شيتا » - أى البحث - وهى اللسان العقائدى للحزب الشيوعى الإيطالى بحثاً موضوعه : « الحل الاشتراكى لمشكلة فلسطين » وقد نشرت صحيفة « الحياة » البيروتية خلاصته فى ٢٨ يناير سنة ١٩٦٦ جاء فيها :

« وفى ذلك البحث حذرت المجلة الاشتراكيين العرب من القيام بأى عمل عسكرى ضد إسرائيل » التى وصفتها بأنها بلد « توافرت فيه جميع قواعد النظام الاشتراكى السليم » .

وقالت المجلة : « إن إسرائيل تتودد إلى الغرب اضطراراً لتحمى نفسها به من العالَم العربى إذا لم يتحول إلى مجتمع اشتراكى ثورى ، وخشية أن تبقى فيه عصبيات قومية أو دينية تهددها » .

وقالت المجلة : « إن هذه العصبيات القومية والدينية هى سبب الخصومة بين العرب وإسرائيل » .

« فإذا تم تحويل العالَم العربى إلى مجتمع ثورى ، زالت حاجة إسرائيل إلى الغرب والتقت مع العرب على الاشتراكية » .

وجدير بالذكر أن التحذير الشيوعى للعرب من : « القيام بأى عمل عسكرى ضد إسرائيل فى أوائل ١٩٦٦ » قد تكرر على

لسان السفير السوفياتى فى القاهرة قبل ساعات من وقوع العدوان الإسرائيلى العنيف على العرب فى ٥ « حزيران » ١٩٦٧ » .

هذا هو منطق الشيوعيين وموقفهم الفكرى من هذه القضية : إن حلها يكمن فى انتصار الماركسية وسيادة الشيوعية على المنطقة كلها . فإن الذى يؤجج النزاع بين العرب واليهود ليس هو عدوان اليهود على فلسطين وطناً وشعباً ، بل هو وجود الرجعية والبرجوازية فى الفريقين . فإذا زال الرجعيون من الطرفين ، وانتصرت طبقة « البروليتاريا » أمكن أن تقوم حينئذ أخوة اشتراكية بين العمال العرب والعمال اليهود ، بعد أن ذهب الشيطان الذى يفرِّق بينهم !

وليس هذا المنطق وليد اليوم ولا الأمس . بل هو منطق قديم راسخ فى عقلية الماركسيين ، مهما يحاولوا أن يخفوه فى بعض الأحيان ، تبعاً لتقلبات السياسة السوفييتية فى المنطقة العربية ، ولنعد بذاكرتنا قليلاً إلى الوراء :

« فى سنة ١٩٢٦ ظهر أول شيوعى عربى فى فلسطين . إنه لم يذهب إلى موسكو ليتعلم الشيوعية هناك . بل علَّمه الصهيونيون الذين جاءوا من موسكو لنشرها فى الشرق الأوسط . وقف هذا الشيوعى يخطب فى جمع من العرب يقول :

« أيها الرفاق : أنتم أخوة مع اليهود فلا تقاوموا هجرتهم

واستيطانهم . يا عمال العالَم اتحدوا . يجب أن نتحد مع اليهود القادمين وننشىء جمهورية شعبية وأن نحارب الاستعمار .. إن الزعماء الوطنيين الذين يطلبون منكم محاربة الاستعمار والصهيونية ومقاومة الهجرة اليهودية هم رجعيون مخادعون . لتسقط الرجعية . لا تحاربوا الكادحين اليهود بل حاربوا الرأسماليين العرب » .

هذه هى أقوال أول خطيب شيوعى عربى وكان اسمه « عثمان أبو طبيخ » ، وقد سافر بعد ذلك إلى موسكو وغيّر اسمه واحتل منصباً رفيعاً لأنه خدم الصهيونية بإخلاص .

كان الشيوعيون فى فلسطين يزعمون أنهم يحاربون الاستعمار ولكنهم فى الواقع لم يفعلوا شيئاً ضد الاستعمار ، بل كانوا يحاربون الحركة الوطنية العربية ، ولقد كان الاستعمار حليفاً لهم ، يقدم لهم الضحايا . وكان إذا اعتقل الاستعمار أحد الشيوعيين أنزله سجناً تتوفر فيه جميع شروط الراحة ، أما إذا وقع بين يديه وطنى عربى أطلق عليه الرصاص .

وعندما كان العرب يقومون بثورة ضد الاستعمار كان الشيوعيون لا يشتركون فيها ، بل يهربون إلى تل أبيب ويعلنون أن هذه الثورة لا تخدم المصالح الشيوعية .

ولما قام العرب بثورتهم الكبرى فى سنة ١٩٣٦ حاربها

الشيوعيون وكانوا يوزعون المنشورات كل يوم ضد الثورة العربية .

ولعل الرأى العام العربى لا يعرف أن الشيوعيين من اليهود والعرب قد ألفوا منظمة إرهابية خاصة بهم هى : منظمة « اشتيرن » المعروفة . وأن جميع أعضائها كانوا من الشيوعيين الذين حاربوا فى صفوف الصهاينة ضد العرب .

وأن معظم رجال « الهاجاناه » و« البالماخ » من أعضاء حزب « المابام » الشيوعى وأن « إيجال آلون » الذى كان يحاصر القوات المصرية فى الفالوجا شيوعى صهيونى ، وأن زميله « إسحٰق ساديه » قائد « البالماخ » من أقطاب الفكرة الشيوعية ومفكريها الأفذاذ ، وأن كتاباته عن المذهب الشيوعى لا تقل أهمية عن كتب « لينين » فى نظر الشيوعيين اليهود .

وعندما جاءت الحرب العالمية الثانية واتفقت بريطانيا مع روسيا بادر زعيم الشيوعيين العرب فى فلسطين إلى مكتب الحاكم الإدارى البريطانى وصافحه وقال : نحن حلفاء .

ولما نظرت هيئة الأمم المتحدة فى قضية فلسطين وقف وزير خارجية روسيا يعلن أن حكومته يسرها الموافقة على التقسيم ، ويسرها أن تشترك فى تحقيق أحلام القومية اليهودية .

وأصدر الحزب الشيوعى الفلسطينى بياناً أعلن فيه أنه يرحب

بالتقسيم ، وبإنشاء دولة يهودية . بعد أن كان هذا الحزب يدعو للاتحاد العربى اليهودى وافق - إطاعة لأوامر موسكو - على انفصال اليهود بدولتهم .

ولما أعلن العرب رفضهم للتقسيم سافر أقطاب الشيوعيين من فلسطين إلى موسكو يطلبون العون لمحاربة « القومية العربية » فأرسلتهم موسكو إلى تشيكوسلوفاكيا حيث شحنوا من هناك عدة بواخر مليئة بالأسلحة ، وأرسلوا عديداً من الطائرات الضخمة المشحونة بالأسلحة . وفى سنة ١٩٤٢ بلغ عدد الذين هاجروا من اليهود إلى فلسطين ...ر٢٣٥ جاءوا جميعاً من أوروبا الشرقية ، وفى السنة التالية دخل البلاد ...ر١٨٥ نسمة كلهم من أوروبا الشرقية » [١] .

والحقيقة أن العلاقة بين الشيوعية والصهيونية ليست علاقة سطحية ولا عرضية . إنها علاقة عميقة عريقة . ترجع فى تاريخها إلى أواسط القرن التاسع عشر ، عندما بدأت هجرة اليهود من روسيا تتدفق نحو الغرب .

« ويخطىء مَن يظن أن الفكرة الشيوعية قد ظهرت فى روسيا ، بل إنها فى الواقع من وضع أولئك اليهود الذين رحلوا عن روسيا وراحوا يفكرون فى غزو العالَم والسيطرة عليه .

---

(١) كتاب « إسرائيل وكر الاستعمار » تأليف محمد عطية واكد ص ٢٥ ، ٢٦

فقد وضع « كارل ماركس » اليهودى الفكرة الاشتراكية وراح أقطاب اليهود يفكرون فى تنفيذها بما يتفق مع أغراضهم . ولما وضعوا خطوطها التنفيذية العملية وجدوا أنها تصلح للتنفيذ فى روسيا وأنها فى حاجة إلى تحوير وتبديل كى تصبح صالحة للمحيط الروسى وتبلورت الفكرة الشيوعية فى بوتقة اليهود .

ولو اطلعنا على الخطط السرية التى وضعها حكماء صهيون والتصريحات الصحيحة المؤكدة التى كان أقطاب اليهود يجاهرون بها لوجدنا أن الشيوعية من تدبيرهم . فهم يريدون نشر الإلحاد فى العالم ويريدون صراعاً بين الطبقات يجمع السيطرة فى أيدى نفر من الرجال الذين تستطيع اليهودية العالمية أن تدسهم وتقوى نفوذهم سواء أكانوا يهوداً أم غير يهود .

ولقد كان القاضى « براندیس » زعيم يهود أمريكا فى القرن الماضى شيوعياً . وكان « هارولد لاسكى » زعيم عمال بريطانيا شيوعياً ، وكان دزرائيلى ، وليون بلدم ، وروتشلد ، وفرانكفورتر وغيرهم شيوعيين يعملون من أجل تحقيق الأغراض اليهودية المعروفة .

وتاريخ الثورة الشيوعية فى أدوارها الأولى يبرهن على أنها كانت ثورة صهيونية يهودية ، يسيطر عليها اليهود الذين كانوا يمثلون المناصب الكبرى مع « لينين » .

ولم يكن من الضرورى أبداً أن يتظاهر اليهود بتسيير الشيوعية إذ أن ذلك يخلق جواً من الريبة والجفاء نحوها ، ولذلك فإن اليهود كانوا يسيرون الشيوعية سراً فكانوا يزودونها بالمال سراً وينفقون على « لينين » وزملائه سراً ويحركونهم للعمل سراً ، ويضمون إليهم رجالاً من اليهود لا يكشف الواحد منهم عن يهوديته بل يزعم أنه دولى شيوعى ، وهكذا كانت الشيوعية ستاراً يخفى وراءه المؤامرة الصهيونية التى ترمى إلى السيطرة على العالم عن طريق الإلحاد والفساد الاجتماعى والفوضى والصراع الطبقى » [1] .

« وكانت الصهيونية تتظاهر طول الوقت بأنها على خصومة مع الشيوعية ، مع أن هذه الخصومة ليست حقيقية أبداً . فإن نسبة كبيرة من اليهود الذين نقلتهم الصهيونية إلى فلسطين كانوا شيوعيين ، وكانت الصهيونية تعلم ذلك وتسمح للحزب الشيوعى أن يمارس نشاطه كما يريد ، وكان المؤتمر الصهيونى العالمى يضم مندوبين عن الأحزاب والمنظمات الشيوعية . وكان الشيوعيون الذين نقلتهم الصهيونية إلى فلسطين هم الذين ينشرون المبادىء الشيوعية بين العرب ، وكان كل عربى يميل إلى الشيوعية يُنقل إلى المستعمرات الصهيونية لكى تغذيه بالمبادىء الشيوعية . إن هذه المبادىء كانت توضع باللغة العبرية ، وكان لزاماً على

---

(١) كتاب « إسرائيل وكر الاستعمار » ص ١٩ ، ٢٠

كل مَن يصبح شيوعياً أن يتعلم العبرية ليتلقن بها مبادىء الشيوعية » [١] .

على أن العلاقة بين الشيوعية والصهيونية ليست علاقة تاريخية فحسب ، بل هى علاقة فكرية أيضاً ، فإن المبادىء الشيوعية الأساسية ومبادىء الصهيونية العالمية تتشابهان وتتفقان فى وجهتهما وخطوطهما العريضة .

« إن الشيوعية تدعو إلى الإلحاد بين الناس ، والصهيونية كذلك .

والشيوعية تدعو إلى انحلال المجتمع ، والصهيونية كذلك .

والشيوعية تدعو إلى نشر الفوضى والاضطراب ، وكذلك الصهيونية » [٢] .

« والشيوعية تريد من الشعوب أن لا يحسوا بالقومية والوطنية ، وكذلك الصهيونية .

والشيوعية تدعو للسيطرة على العالم ، والصهيونية كذلك .

والشيوعية تريد تحطيم الكيان العائلى والرباط الزوجى ، والصهيونية كذلك .

إنهما تلتقيان فى صعيد واحد فى المآرب والأهداف الرئيسية وفى المبادىء الهدامة التى تريد أن تنشرها بين الناس وإن كانت

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١ (٢) المصدر السابق ص ٢٢

كل واحدة منهما تسير فى طريقها منفردة إلا أنهما ستلتقيان على أنقاض البشرية إذا تحقق لهما الانتصار » [١] .

« لقد قالت الصهيونية فى مبادئها الأساسية التى وُضعت قبل ظهور الشيوعية بنصف قرن على الأقل : إنه يجب نشر الفوضى والثورات بين الشعوب وإشعال نار الحروب بين الأمم كى يضعفوا ، وإحداث الفتن الداخلية والصراع الطبقى .

أليست هذه الأشياء هى ما تفعله الشيوعية أيضاً ؟

لقد قال حكماء صهيون إنه يجب هدم الأديان كلها وإثارة الريبة وزرع الشكوك فى قلوب البشر نحو الوجود كله .

أليس هذا ما تقوله الشيوعية أيضاً ؟ أليس هذا ما تفعله الصهيونية كذلك فى أمريكا وأوروبا ، وأليس معنى هذا أن الشيوعية والصهيونية تتعاونان على الوصول إلى الهدف ؟

لقد نادى حكماء صهيون بالسيطرة على العالم ورسموا الخطوط العريضة لذلك ، وطلبوا انتشار عملائهم فى أنحاء العالم .

أليس هذا ما تفعله الشيوعية عندما ترسل عملاءها إلى قطر ليهدموه من الداخل ويهيئوه للانضمام إلى الدولية العالمية » [٢] .

« إن الصهيونى شيوعى فى أعماق قلبه ، وهو يبذر المال لنشر المبدأ الشيوعى فى كل مكان ، فالصهيونى لا يستطيع أن يصبح

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢ (٢) المصدر نفسه ص ٢٢ ، ٢٣

غنياً ذا نفوذ وسيطرة إلا فى الجو الذى تضيع فيه القيم الروحية وتنتشر الفوضى الاجتماعية . ومن مصلحة الصهيونى أن تنتشر المبادىء الشيوعية بين الجماهير التى يعيش بينها فتتصارع فيما بينها ، بينما هو يسير فى طريقه ليجمع بين يديه المال والنفوذ والسيادة » [1] .

لقد أطلنا الحديث بعض الإطالة فى توضيح موقف الشيوعية من قضيتنا ونظرتها الثابتة إليها وعلاقتها بالصهيونية من قديم ، لنعرف مَن معنا ومَن علينا . ونستبين إلى أى حد يؤيدنا المعسكر الشيوعى الحليف لبعض الدول العربية . وبهذا نقدِّر حقيقة قوتنا ، ولا نبنى قصوراً فى الهواء ، أو نسبح فى غير ماء .

إن الاتكال على المعسكر الشيوعى ، كالاعتماد على الهيئات الدولية ، كلاهما لن يحرر فلسطين ، ولن يرد الوطن السليب إلى أهله . ونحن معهما : ﴿ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ [2] .

* *

٣ - التعبد للعلم والمال :

وقال فريق ثالث من العرب : إن سبيل النصر ليس الاعتماد على شرق ولا غرب ، ولكنها سبيل واحدة لا شريك لها ، هى القوة

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢ ، ٢٣ (٢) الرعد : ١٤

المادية ، التى تتمثل فى العلم والمال ، فبالعلم والمال يبنى الناس مُلكهم ، ويستردون حقهم .

ونحن لا نختلف وهؤلاء فى ضرورة إعداد القوة المادية ، واستخدام أقصى ما نستطيع من إمكانات العلم الحديث ، فهذا ما أمرنا به ديننا وما فرضه علينا ربنا . قال تعالي : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (١) .

وقد قرر أئمة الإسلام أن كل علم يحتاج المسلمون إليه فى دينهم أو دنياهم ، فإن تعلمه وإتقانه فرض كفاية على المسلمين . فإذا لم يقم به عدد كاف به أثمت الأمه كلها لتفريطها فى هذا الواجب .

والقاعدة التى لا خلاف عليها بين كافة المسلمين : أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . فإذا كان تحرير أرض الإسلام ، والدفاع عن حوزته وحرماته لا يتم إلا بإعداد أحدث الأسلحة ، التى تماثل أسلحة العدو - إن لم تفق عليه - وكان إعداد هذا الأسلحة يتطلب كفاءات علمية قادرة فى شتّى مجالات العلوم الكونية والحيوية ، فإن إعداد هذه الكفايات فريضة دينية تأثم الأمة كلها بالغفلة عنها أو التهاون فى شأنها .

---

(١) الأنفال : ٦٠

إن إعداد القوة المادية لا خلاف عليه . ولكن الذى نخالفه وننكره الاقتصار على هذا الجانب إلى حد « التعبد » له ، كما قال بعضهم . وقد مرّ بنا قول ميخائيل نعيمة : « إن على العرب أن يتعبدوا للعلم والمال ، لعل العلم والمال لا يخذلانهم حيث خذلهم ربهم » !

فالخطر الذى نقاومه هنا هو عبادة القوة المادية من دون الله ، والإيمان بأنها هى وحدها « الإله » الذى يخفض ويرفع ، ويقول للشىء : كن ، فيكون .

فهذا - فضلاً عن انحرافه بالأمة عن عقيدتها ومنهجها ، وإضلالها عن غايتها وطريقها - لن يؤدى إلى النصر المنشود على عدونا المتمكن فى قلب وطننا .

يقول هذا الفريق من الناس : إننا بالتعبد فى محراب العلم والمال نستطيع أن نتحول إلى مجتمع متمدن ، مجتمع عصرى ، ينافس المجتمع الإسرائيلى ويسابقه فى عصريته وتمدنه .

وبالعلم والمال ، نصنع السلاح ، ونعد القوة الرادعة ، التى تقذف بإسرائيل فى البحر .

ونسى هؤلاء أننا بالعلم والمال وحدهما لن نغلب إسرائيل .

إن إسرائيل تملك من الكفايات العلمية ما لا نملكه ، فكل

يهودى متخصص فى العالَم يُعتبر جندياً فى خدمة إسرائيل ، ولا يعتبر من الخبراء الأجانب ما دام يهودياً . والعلم الغربى كله فى خدمة إسرائيل ، وكل ذهب اليهود فى العالَم فى خدمة إسرائيل .

على إننا دخلنا المعركة الأخيرة - ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ - بأحدث الأسلحة ، وأضخم الاستعدادات فما أغنت عنا . لقيتُ منذ قليل أحد القادمين من سيناء ، فسألته عن وقع الكارثة عليهم فقال : شىء لا يُتصور ، أنتم هنا سمعتم أنباءها فحسب . أما نحن فرأينا قبل أن نسمع . قلت : وماذا رأيتم ؟

قال : رأينا أسلحة من أحدث طراز ، تغطى الصحراء ، وتسد عين الشمس ، الدبابات الضخمة المجهزة التى قالوا إنها تزن ستين طناً من الصلب . أقوى المدرعات والمصفحات ، المدافع المضادة للطائرات والدبابات ، لقد كنا نمر بها وننظر إليها ونقول : هنا يكمن موت إسرائيل . لقد حان أجلها . إنها ستخر لأول هجوم تشنه هذه القوة الهائلة .. ثم .. فوجئنا بهذا العتاد الضخم وهذه الأسلحة الرائعة يغادرها أصحابها دون أن يقاتلوا بها أو - على الأقل - يخربوها فلا ينتفع بها عدوهم ، إذ كان أكبر همهم النجاة .

ما الذى حدث يا ترى ؟ لقد صمد الذين قاتلوا بالأسلحة الفاسدة أكثر من هذا .. ليس النصر إذن بالسلاح بل بالرجل الذى يحمل السلاح .

وقد شاهدنا الجزائريين المسلمين ينتصرون على العلَم الفرنسى والمال الفرنسى ، لأن الجزائريين كانوا يحاربون بدافع العقيدة الإسلامية ، أما الفرنسيون فبدافع المصالح الاستعمارية . وسمعنا عن عصابات « الفيتكونغ » الشيوعيين ينتصرون على العلَم الأمريكى والمال الأمريكى ، لأن هؤلاء الفيتناميين يقاتلون بعقيدة - ولو أنها فاسدة - قوماً لا عقيدة لهم تدفعهم إلى الحرب .

لا بد من استخدام العلم إلى أبعد مدى ، ولا بد من تجنيد المال إلى أقصى حد . ولكن ليس العلم هو كل شىء ، ولا المال كل شىء ، فطالما انتصر الأميون على المتعلمين ، وانتصر الفقراء على الأغنياء .

يقول بن جوريون فى عام ١٩٤٩ : « كل ما يجىء به العلم الحديث لا يكفى وحده لكسب الحرب . ولن تكون الكلمة الأخيرة للدبابة ولا للمدفع ولا للطائرة المقاتلة . إنما تكون للإنسان الذى يسخِّر هذه الوسائل لإرادته » .

ولا بأس أن نأخذ الحكمة من أفواه الصهونيين !!

* *

٤ - الوحـــدة :

وقال فريق رابع : إن الطريق إلى تحرير فلسطين هو الوحدة العربية ، ورفع بعضهم شعار « الوحدة طريق العودة » وقالوا :

بدون الوحدة لا نستطيع مواجهة إسرائيل وقد غدت ترسانة أسلحة ، وباتت على أبواب صنع القنبلة الذرِّية .

ولا شك أن الوحدة العربية هدف يجب السعى إليه ، وهى خطوة لازمة فى طريق الوحدة الإسلامية الكبرى ، ولكن كيف السبيل إلى وحدة العرب ، وقد تفرُّقت بهم المناهج والأهداف ، بين يمين ويسار ، وثورية ورجعية ؟

إن الذى وحَّد العرب قديماً وجعل من قبائلهم المتفرقة أمة واحدة تواجه الإمبراطوريات الكبرى بصف لا يتزعزع ، وبناء لا يتصدع ، هو الذى يستطيع أن يوحِّدهم اليوم ويلم شملهم المبعثر . إنه الإسلام ، ولا شىء غير الإسلام .... الإسلام كما شرعه اللّه ، لا كما تفسره المصالح والأهواء ، وتستخدمه الأجهزة والسلطات أداة للتأثير والتخدير . وبدون العودة إلى الإسلام سينقسم العرب على أنفسهم ، تبعاً للأهداف والمناهج التى يتخذونها لحياتهم ، ووفقاً للرايات والشعارات التى يرفعها كل فريق . ولا عجب أن نرى الدول العربية وقد صنعت هذا التصنيف الحديث : فقوم يمينيون وآخرون يساريون ، وفريق ثورى ، وآخر محافظ أو إصلاحى أو رجعى ، وجماعة مع الشرق ، وأخرى مع الغرب . وهؤلاء ليبراليون وأولئك اشتراكيون .

وداخل كل فئة تجد انقساماً آخر ، تبعاً للقِبْلة التى يولى كل فريق وجوههم شطرها .

ولا مخرج من هذا الانقسام والتمزق إلا الإسلام .

وبدون العودة إلى الإسلام الحق ستظل الأنانيات الصغيرة هى التى تحكم ، والشهوات الكبيرة هى التى تقود ، ففى كل ناحية سلطان وفى كل قبيلة أمير ومنبر ، ورحم الله القائل :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ألقاب معتصم فيها ومعتضـــد

ألقاب مملكة فى غير موضعهـا كالهر يحكى انتفاخاً صورة الأسد

وهذه الأنانيات والشهوات هى التى أضاعت فردوسنا المفقود « الأندلس » .

على أن الوحدة مهما يكن من وجوبها وفائدتها وخطرها ، فليس من الضرورى أن يُربط بها تحرير فلسطين ، ربط اللازم بالملزوم ، والمعلول بالعلّة ، كما يقول أهل المنطق ، فقد يكفى قدر من التضامن الإيجابى ، وقد يكفى الوحدة الجزئية بين بعض البلاد العربية دون اشتراط الوحدة الشاملة .

ومع هذا قد كان فى المعركة الأخيرة ثلاث دول أو أربع تحت قيادة عربية موحدة ولكن لم يغن ذلك عنها شيئاً ، لأن البناء كله غير سليم ، والأساس يحتاج إلى تغيير .

ولقد أجاب بعض المسئولين العرب عن سؤال طالما وُجِّه إلىّ وإلى غيرى من كثيرين من العرب ومن أصدقاء العرب ، وسمعته كثيراً

فى تركيا وفى غير تركيا ... هذا السؤال هو : كيف انهزم ١٠٠ (مائة مليون) عربى أمام ٢ (اثنين مليون يهودى) ؟

قال المسئول : لأن المليونين عبأوا قواهم والعرب لم يعبئوا قواهم .

وهذا الرد لا يشفى الغليل ، فتعبئة الدول المتحررة وحدها يجب أن يكفى ، بل تعبئة دولة كبيرة كالجمهورية العربية المتحدة كاف فى ردع إسرائيل . ونسبة ٣٠ إلى ٢ نسبة غير قليلة أيضاً .

* * *

● الطريق الصحيح ..« الجهاد » :

والسؤال الذى يثب على كل لسان هو : ما الطريق إذن ؟

والجواب : إنه طريق واحد لا ثانى له . إنه طريق « الجهاد » .

والجهاد الذى نعنيه : ليس جهاداً وطنياً ولا قومياً ، إنما هو الجهاد الذى لم تعرف أمتنا غيره منذ أصبحت أمة لها مكان تحت الشمس ، ولها رسالة فى حياة البَشر ولها دور فى تاريخ الإنسان .

إنه « الجهاد فى سبيل اللّه » تلك العبادة الإسلامية المقدسة ، التى لا يعدلها صيام النهار ولا قيام الليل ، حتى جاء فى الحديث : « لمقام أحدكم فى الصف خير من صلاته فى بيته ستين عاماً » .

إنه « الجهاد فى سبيل اللّه » تلك الفريضة التى أُمرت بها الأمة ، كما أُمرت بالصلاة والركوع والسجود : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ارْكَعُواْ

وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وجَاهِدُواْ فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ (١) .

﴿ انفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

إنه « الجهاد فى سبيل الله » الذى انتصرت به هذه الأمة - من قبل - على الوثنية والمجوسية والنصرانية واليهودية . وانتصرت به - من بعد - على الزحف التترى ، والغزو الصليبى .

إنه الجهاد الذى حققنا به انتصارات بدر وخيبر ، واليرموك والقادسية ، وحطين وعين جالوت وما بعد ذلك إلى الجزائر .

إنه الجهاد الذى أضعف روحه فى الأمة الاستعمار الخارجى والطغيان الداخلى ، والتحلل الفكرى والخُلُقى ، الذى قذفتنا به ريح الحضارة المادية الغربية ، بشقيها الليبرالى والاشتراكى .

إنه الجهاد الذى أصبح اليوم - ومنذ عشرات السنين - فريضة عينية لإعادة حكم الإسلام واستعادة أرض الإسلام ، وتوحيد أمة الإسلام تحت راية القرآن .

إنه الجهاد الذى فرَّطت الأمة فيه وفى الإعداد له ، فغُزِيت فى عقر دارها ، وضربها الله بالذل فسيطر عليها عدوها . وحكمها مَن

---

(١) الحج : ٧٧ - ٧٨ • (٢) التوبة : ٤١

كان بالأمس محكوماً لها . حتى اليهود أجبن الناس في حرب وأحرصهم على حياة ! وصدق اللّه العظيم إذ يقول : ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً ، وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

إنه الجهاد الذى نودى به فى باكستان فى حربها الأخيرة مع الهند ، وهى أكثر عدداً وعُدَّة ، فصنع الشعب المسلم الأعاجيب وكان أبناؤه يتراكضون إلى الموت - فى لهف منقطع النظير - وبلغ من إيمانهم أن كثيراً من الضباط والجنود أقسموا أنهم رأوا الملائكة تنزل عليهم ساعة القتال .

ولا يستطيع أحد أن يقول : إن الملائكة وقف على أهل بدر أو الخندق أو حنين !

إنه الجهاد الذى نودى به فى الجزائر ، فقدَّم شعبها « مليون شهيد » فى المعارك بين « المسلمين » والفرنسيين . ولم تلق السلاح حتى تحقق لها النصر .

إنه الجهاد الذى نودى به - على نطاق محدود - فى سنة ١٩٤٨ ، فأيقظ الروح وألهب المشاعر ، ورأينا من الشباب الطالب الذى يترك جامعته ليتطوع لإنقاذ فلسطين ، ورأينا الموظف الذى يترك

---

(١) التوبة : ٣٩

ديوانه ، والتاجر الذى يترك دكانه ، والفلاح الذى يبيع جاموسته - وهى رأس ماله - ليشترى بها بندقية يقاتل بها اليهود .

وإن أنس لاأنسى قصة « حسن الطويل » الفلاح المصرى الذى تطوع وأبى إلا أن يبيع جاموسته ليسلح بها نفسه . فلما قيل له : يا حسن خل الجاموسة للعيال ، ويكفى أنك تجاهد بنفسك وغيرك يجاهد بماله . فقال : ولكن الله لم يشتر منا أنفسنا وحدها بل اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . وأعطاهم الثمن : الجنة . فإذا أردنا الثمن فلنسلم الصفقة !

الطريق إلى النصر وإلى التحرير هو طريق الجهاد ، ولا طريق غيره . ومَن لم تقنعه قوة المنطق أقنعه منطق القوة ، ومَن لم يُسمعه صرير الأقلام أسمعه صليل السيوف :

والشر إن تلقه بالخير ضقتَ بـه ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسـم

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

* * *

● الجهاد يقتضى تغييراً وتعبئة :

لا مفر إذن من الجهاد إن أردنا النصر .

ولكن الجهاد ليس كلمة تُقال ، ولا دعوى تُدعى ، ولا شعاراً يُرفع فحسب ، إنه اتجاه فى حياة الأمة ، يصبغ أحاسيسها وأخلاقها وسلوكها صبغة جديدة .

إن هذا الجهاد يحتاج إلى إعداد وتغيير فى حياة الأمة ، حتي تتحمل أعباءه مطمئنة ، وتتقبل تكاليفه راضية . تغيير يحول الأمة من الفراغ والسلبية إلى العمل والإيجابية ، من الأنانية إلى التضحية ، من أمة تتغنى بسحر العيون ورمش الجفون إلى أمة تتغنى بحب الشهادة وفن الموت فى سبيل الله . من أمة تقتل أوقاتها ومعنوياتها إلى أمة تقتل أعداءها . من أمة تحب الدنيا وتكره الموت إلى أمة تحرص على الموت لتوهب لها الحياة .

إن أمة تعيش للجهاد لا بد أن تتغير حياتها كلها : سياستها .. اقتصادها .. مناهج التربية فيها ، برامج التثقيف والترفيه . الأخلاق والآداب ، المشاعر والأحاسيس ... المفاهيم والتصورات .. الأنظمة والقوانين .. العادات والتقاليد .. كل شيء فيها يجب أن يتغير ، ليلائم حياة الجهاد ورسالة المجاهدين فى سبيل الله .

ولأمر ما ، ظل رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً فى مكة ، نزل عليه فيها حوالى تسعين سورة [1] من كتاب الله ، ولا هَمَّ له فى تلك المدة إلا تربية الجماعة المؤمنة ، وتغيير حياتها تغييراً جذرياً ، ينقلها من الجاهلية إلى الإسلام : من جاهلية العقيدة والفكر ، وجاهلية الخُلُق والسلوك إلى عقيدة الإسلام ، وأفكار الإسلام ، وأخلاق الإسلام ، وسلوك الإسلام .

---

(١) السور المكية باتفاق ٨٢ ، والمدنية باتفاق ٢٠ ، والمختلف فيها ١٢

كل ذلك قبل أن تنزل عليه - صلى الله عليه وسلم - آية واحدة تأمر بالقتال ، وتدعو إلى الجهاد بالسيف والسنان .

حتى إذا نزل قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (١) انطلق جنود الله ، واضعين رؤوسهم على أكفهم ، لا يبغون إلا إحدى الحسنيين : النصر أو الجنة .

ثم إن الجهاد يحتاج إلى قاعدة للانطلاق ، إلى أرض تحطمت فيها الأصنام ، وخلصت لكلمة الإسلام ، وكتائب الرحمن ، فكانت « المدينة » هى هذه الأرض الموعودة ، والقاعدة المنشودة . التى انطلقت منها كتائب الحق لتدك الباطل ، وصدرت منها جحافل التوحيد ، لتحرر البَشر من العبودية للبَشر ، وتُعلى كلمة الله على كلمة الطاغوت .

ومن ثَمّ يستوجب منا الفكر القويم أن نعيد النظر فى تعبئة الأمة للجهاد من جديد : تعبئتها مادياً - عسكرياً واقتصادياً - وتعبئتها معنوياً - روحياً وخُلقياً وفكرياً .

* * *

● التعبئة العسكرية لا تكفى :

ومعنى هذا : أن التعبئة العسكرية وحدها لا تكفى . فليس السلاح هو كل شىء فى الحروب ، فالسلاح يحتاج إلى اليد التى

---

(١) الحج : ٣٩

تستعمله ، واليد تحتاج إلى الإرادة التى تحركها ، والإرادة تحتاج إلى الإيمان الذى يدفعها .. وما أجمل ما قال الطغرائى فى ذلك :

وعادة السيف أن يزهى بجوهره وليس يعمل إلا فى يدى بطل

وقال أبو الطيب :

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

* * *

● التعبئة الإيمانية والأخلاقية :

لا بد إذن من تعبئة الأمة تعبئة إيمانية وروحية وخُلُقية ، حتى تكون على مستوى الهدف ، ومستوي المعركة ، وإلا فليس بمستغرَب أن نرى من جديد قادة يذيبون فحمة الليل فى أحفال راقصة حتى مطلع الفجر ، والعدو متربص ، مفتوح العينين ، مشدود اليدين ليضرب ضربته فى الصميم ، وليس بمستبعَد أن يُقدِّم السلاح الذى تشتريه الأمة بأقواتها هدية سائغة إلى عدوها .

إن هذه التعبئة المنشودة تقتضى تغييراً جوهرياً فى حياة أمتنا ، تغييراً يقوِّم ما اعوج من أفكارها وعقائدها ، ويصلح ما فسد من مشاعرها وسلوكها ، ويصحح ما انحرف من أنظمتها وقوانينها ، تغييراً يرجعها إلى ربها ودينها ، ويردها إلى رشدها وإيمانها ،

ويعيدها إلى نفسها بعد أن فقدت نفسها : ﴿ نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (١) .

هذه هى السُنَّة الاجتماعية الثابتة التى قررها القرآن الكريم وأكدها الواقع الماثل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٢) .

ليس المهم هو تغيير الأشياء المادية أو التنظيمية ، مثل إعادة تسليح الجيش ، وإعادة تنظيم القطاع العام ، وتكوين المنظمات السياسية ، وما شابه ذلك من أوضاع . فهذا كله ليس تغييراً حقيقياً . إنه تغيير عرضى يتناول الأدوار والممثلين فحسب أو يتناول الجوانب المادية فقط . وإن شئتَ فقل : هو إلهاء عن التغيير الواجب .

أما الشىء الأهم بل الشىء الأساسى ، فهو التغيير المعنوى . التغيير فى القيم والأفكار والمشاعر والأخلاق ، وهذا ما اعترف صُنَّاع الهزيمة أنفسهم أنهم لم يفعلوه (٣) . ومحال أن يكون هؤلاء أصحاب التغيير المنشود ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه . وهل يستقيم الظل والعود أعوج ؟

---

(١) الحشر : ١٩ (٢) الرعد : ١١

(٣) قال رئيس تحرير الأهرام فى مقال الجمعة ١١ أكتوبر ١٩٦٨ : إن التغيير حدث فيما هو مادى ولم يحدث فيما هو معنوى إلا بصورة ضئيلة .

لا بد من تغيير معنوى تتعاون قوى الأمة وأجهزة الحكومات كلها على تحقيقه .

هذا التغيير هو ضرورة عسكرية وضرورة قومية ، كما هو ضرورة دينية وأخلاقية .

لا بد من تنمية روح الإيمان ، وعقلية الإيمان ، وأخلاق الإيمان فى الأمة التى يراد إعدادها للجهاد . فالإيمان هو السلاح الأول فى معركتها . وأمة بلا إيمان ستنهار لأول ضربة ، وتخر صريعة لأول صدمة . والإيمان هو الذى يقاوم اليأس فى قلوبها ، والخلل فى صفوفها ، والطراوة فى حياتها ، والوهن فى نفوسها ، وأول الوهن حب الدنيا وكراهية الموت . والأمة التى تريد أن تحيا لا بد أن تحرص على الموت حتى تستحق العيش . هكذا كان سيف اللّه خالد بن الوليد يبعث بكتبه إلى قوّاد الفُرس والروم ليدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو القتال ، ثم يختم كتبه بقوله : « وإلا جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » !

وفى حالة الصراع بين الأمم تنتصر الأمة التى لها عقيدة - أياً كانت - على الأمة التى لا عقيدة لها - أو كان لها عقيدة تخلت عنها .

فالأمة المؤمنة بعقيدتها - أياً كانت - تنتصر على الأمة التي أصابها الشك والتذبذب ، وباتت تتقاذفها التيارات ، تميل بها إلى

الشرق والغرب واليمين واليسار ، كالكرة بين أرجل اللاعبين ، لا تستقيم على اتجاه ولا يقر لها قرار .

* * *

● الأساس الدينى لإسرائيل والصهيونية :

وفى معركتنا مع الصهيونية العالمية - بصورة خاصة - يلزمنا الإيمان أكثر من معركة أخرى . ذلك أن عدونا يسلح جنوده وأبناءه بعقيدة دينية ، ودوافع دينية ، وأحلام دينية ، ولهذا اختار وطنه القومى فى « أرض الميعاد » وسماها « إسرائيل » وأعلن « بن جوريون » أحد قادتها أن لا معنى لإسرائيل من غير القدس ، ولا معنى للقدس بغير الهيكل !! وبعث برسالة إلى « ديجول » قال فيها : إن التوراة هى أساس جميع الأعمال التى تتخذها إسرائيل .

وسئل « موسى ديان » : هل كنتم تشعرون أن اللّه معكم فى معركة ٥ « حزيران » ؟ قال : كنا نشعر أننا فى جانب اللّه !

وقال مرة : إن جيشنا ليست مهمته الأساسية حماية الصناعات . إنما رسالته حماية المقدسات وعلى هذا الأساس يتدرب ويقاتل .

إن فلسطين فى نظر اليهود تسمى « أرض الميعاد » أى الأرض التى وعد الرب بها بنى إسرائيل . ويرجع هذا الاعتقاد إلى ما ورد فى التوراة أن الرب قد أعطى إبراهيم عهداً قائلاً له : « لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات » .

وهذا النص هو الأساس الدينى لتعلق اليهود بفلسطين ومطامحهم فيها ، ومطالبتهم بها . يقول الدكتور « حاييم وايزمن » أحد أقطاب الحركة الصهيونية وأول رئيس لدولة إسرائيل : « إن الشعور الدينى هو مصدر الصهيونية والحافز لقيامها . هذا الشعور الناجم عن التقاليد والمعتقدات اليهودية ، والمبنى على أقدم الذكريات للبلاد التى نشأت فيها الحياة اليهودية الأولى والتى مارس فيها اليهود حريتهم » .

ولا عجب أن كان مما يقوله اليهودى فى صلاته : « لتنسنى يمينى إن نسيتك يا أورشليم » .

ومن الغريب أن بعض الناس يتجاهلون الحقائق الملموسة ، ويحاولون أن يصفوا الحركة الصهيونية بأنها حركة سياسية علمانية مجردة ، وأن الصهيونية شىء واليهودية شىء آخر أعم منها ، فكل صهيونى يهودى ، وليس كل يهودى صهيونياً .

وهذا كلام خاطىء أو مضلل ، فقد أثبتت الوقائع والأيام والتصريحات المختلفة لزعماء الصهيونية ، والمواقف المختلفة ليهود العالَم : أن الصهيونية حركة يهودية عالَمية ، وأن اليهودية والصهيونية متلازمتان ولا يمكن أن يفترقا . وأن كل يهودى هو فى الواقع صهيونى .

ولقد عرَّف بعض كُتَّاب اليهود الصهيونية بأنها : « إيمان

باليهودية وما تعنيه من مفاهيم فكرية وتاريخ وعادات من الناحية النظرية ، ثم الهجرة إلى فلسطين للإقامة فيها بقصد بناء الدولة من الناحية العملية » . ويقول « حاييم وايزمن » : « إن يهوديتنا وصهيونيتنا متلازمتان متلاصقتان ، ولا يمكن تدمير الصهيونية بغير تدمير اليهودية » [١] .

ويقول « بن جوريون » : إن الصهيونية تستمد وجودها وقوتها من مصدرين :

١ - المصدر الأول مصدر عاطفى دائم - مستقل عن الزمان والمكان ، قديم قِدَم الشعب اليهودى ذاته ، إنه يتمثل فى الوعد الإلهى والأمل فى العودة ، ذلك الوعد الذى يتمثل فى قصة اليهودى الأول الذى أبلغته السماء أن : « سأعطيك وذريتك من بعدك جميع أراضى بنى كنعان مِلْكاً خالداً لك » .

٢ - والمصدر الثانى : هو الفكر السياسى للشعب اليهودى .. إلخ » .

وفى المؤتمر الخامس والعشرين للصهيونية العالَمية ، والذى عُقِد فى القدس المحتلة فى ٢٥ ديسمبر ١٩٦٠ ، تحدث « بن جوريون » فى ختامه ، وهو رئيس حكومة إسرائيل حينئذ قائلاً : « إن كل

---

(١) الصهيونية وربيبتها إسرائيل - تأليف عمر رشدى ص ٥٤

يهودى يجب أن يهاجر إلى إسرائيل ، وإن كل يهودى أقام خارج إسرائيل منذ إنشائها ، يعتبر مخالفاً لتعاليم التوراة ، وإن هذا اليهودى يكفر يومياً باليهودية » [١] .

ترى أهذه فتوى حاخام أم رأى زغيم سياسى ؟

ويقول المفكر اليهودى « سولمون شيختر » : « حيثما يكون الصهيونيون عاملين نشطين ، تكون اليهودية حية فعّالة » .

ويقول زعيم الحركة الصهيونية الأول « تيودور هرتزل » موضحاً الرابطة بين اليهودية والصهيونية : « إن العودة إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية » .

هذا ما قرر فى المؤتمر الصهيونى الأول الذى عقد فى « بال » سنة ١٨٩٧

ولا عجب أن يكون أول دبابة تدخل سيناء تحمل آية من التوراة ! وأن يكون شعار المقاتلين اليهود الذين دخلوا القدس : يا لثارات خيبر !

وأن يكون أول ما يصنعه زعماء اليهود بعد الاستيلاء على القدس هو الذهاب إلى حائط المبكى . وأن يكون أكبر همهم الآن هو تشييد هيكل سليمان ، على أنقاض المقدسات الإسلامية .

هكذا نرى عدونا يدخل الإيمان الدينى بكل قوته فى المعركة ،

---

(١) المصدر السابق .

ولا يخشى أن يُتهم بالرجعية ، أما نحن فنتجهم فى وجه الدين ، ونضيِّق على دعاته ، وقد نكافئهم بسياط التعذيب أو بحبال المشانق ! ونفسح صدور صحفنا وأجهزة أعلامنا لتشتم الذات الإلهية أو تجحد النبوات والأديان ، فى أرض هى مهد النبوات ، ومنبت الديانات .

لقد قال الخليفة الأول أبو بكر الصدِّيق لقائده المظفر خالد بن الوليد فى إحدى وصاياه : حارب عدوك بمثل ما يحاربك به : السيف بالسيف والرمح بالرمح ..

وهذا منطق لا غبار عليه من الوجهة العسكرية المحضة . فإذا كان عدونا يحاربنا بالدين حاربناه بالدين أيضاً . فإذا جنّد عدونا جنوده باسم « يهوه » إلَه إسرائيل ، جنَّدنا جنودنا باسم اللّه رب العالَمين . وإذا دفع جنوده باسم اليهودية ، دفعنا جنودنا باسم الإسلام . وإذا قاتلنا بالتوراة قاتلناه بالقرآن . وإذا جاءنا تحت لواء موسى ، جئناه تحت لواء موسى وعيسى ومحمد ، فنحن أولى بموسى منهم . وإذا ذكروا نبوءات « أشعيا » ذكرنا نحن أحاديث البخارى ومسلم .

وإذا حاربنا من أجل الهيكل حاربناه من أجل المسجد الأقصى الذى بارك اللّه حوله .

وإذا قال عدونا لجنوده : أنتم شعب اللّه المختار . قلنا لجنودنا :

أنتم خير أمة أخرجت للناس . وبهذا نكون نحن المتفوقين ، لأننا أصحاب الدين الأقوى ، ولا يفل الحديد إلا الحديد .

إن أثر التعبئة الإيمانية أو الدينية فى خلق « الروح المعنوية » وتقويتها لدى الجندى المقاتل ، أمر لا يُجحد ، حتى إن الروس الشيوعيين أنفسهم اضطروا فى الحرب العالمية الثانية أن يسمحوا للدين ورجال الدين بالحركة والحرية ليرفعوا الروح المعنوية للشعب وللجيش ، وهم الذين تقوم فلسفتهم على أن الدين خرافة ، وأن الدين مخدر .

وإذا أردنا الاستدلال على أثر الإيمان فى المعارك فالمجال ذو سعة ، ولا أريد هنا أن أكتب عن « بدر » وغيرها من غزوات الرسول ، ولا عن « اليرموك » و« القادسية » وغيرهما من معارك الفتح الإسلامى ، ولا عن « حطين » و« عين جالوت » من معارك المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى والتترى .

إنما أكتفى هنا بمثل واحد من حياتنا المعاصرة :

هذا المثل : من أرض فلسطين نفسها سنة ١٩٤٨ ، من بطولات المتطوعين ، الذين صنعوا العجائب ، وحققوا ما يشبه المعجزات ، على الرغم من ضعف الإمكانات ، وقلّة المساعدات ، وسوء الأوضاع المحيطة .

وكيف لا وقد خرجوا يطلبون الشهادة ، ويسعون إلى الموت

ركضاً ، حتى قال أحد اليهود لضابط مصرى [1] كان أسيراً لديهم : نحن لا نخاف أى قوة كما نخاف من هؤلاء المتطوعين . فسأله : وما الذى يخيفكم منهم ؟ قال اليهودى : لقد هاجرنا وجئنا من بلاد شتّى إلى هذه الأرض لنعيش ، وهؤلاء جاءوا ليموتوا !

أجل .. لقد دخل هؤلاء أرض فلسطين وليس لهم هدف ولا أمل إلا إحدى الحسنيين : النصر أو الجنة ، فكيف يخافون الموت أو يرهبون العدو ؟

لا بد من التعبئة الإيمانية للأمة إذا أردنا النصر ، ولا تتم التعبئة الإيمانية إلا بالتعبئة الأخلاقية ، فالأخلاق ثمرة الإيمان ، وأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً ، ولا إيمان لمن لا أمانة له ولا عهد لمن لا خُلُق له .

فإذا لم تُرَب فى الأمة معانى الخشونة والتضحية والصبر على المكاره ، والانتصار على الشهوات والاستعلاء على الغرائز ، والعفة عن الحرام ، والبُعد عن الميوعة والطراوة وأخلاق المخنثين ، والمتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال - فهيهات أن نصمد فى وجه العدو أو نصبر على حر المعركة ، أو نحتمل شظف الجهاد .

---

(١) هو الضابط المجاهد معروف الحضرى .

إن الأمم تبقى ببقاء الأخلاق فيها ، وتذهب بذهابها .

فإذا كنا نريد أن نغسل عار نكبتين ، فلنغير أخلاقنا . من أخلاق الضعف إلى أخلاق القوة ، من أخلاق العبيد إلى أخلاق الأحرار ، وبعبارة أخرى من أخلاق الفجار إلى أخلاق المؤمنين .

وجماع أخلاق المؤمنين ما عُرِف فى الإسلام باسم « تقوى اللّه » التى فهمها بعض الناس خطأ ، فحسبوها ضرباً من الدروشة أو العزلة أو السلبية فى مواجهة الحياة والناس . وما هى إلا ضمير أيقظته خشية اللّه ، يدفع صاحبه إلى التحلى بمكارم الأخلاق ، والتخلى عن سفاسفها ، فى معاملة الحق أو معاملة الخلق .

إن عمر بن الخطاب لم يكن « درويشاً » ولا « مجذوباً » حين بعث إلى قائد جيوشه سعد بن أبى وقاص وهو يواجه جيوش كسرى ، بقوله : « يا سعد . أوصيك ومَن معك بتقوى اللّه عزّ وجلّ . فإن تقوى اللّه أفضل العُدَّة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب .. واعلم أن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وأنّا لا ننتصر على عدونا بعدد ولا عُدَّة ، فعددنا ليس كعددهم ولا عُدَّتنا كعُدَّتهم ، وإنما ننتصر بمعصية عدونا للّه وطاعتنا له ، فإذا استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة . وإلا نغلبهم بطاعتنا لم نغلبهم بقوتنا » .

وبهذه الأخلاق - أخلاق المتقين ، أخلاق النبوة - انتصر المسلمون على دول كانت أكثر منهم عدداً وأعرق حضارة وأشد قوة .

يحكى لنا ابن كثير فى تاريخه « البداية والنهاية » أن هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية ، حين قدمت عليه منهزمة الروم وهو على أنطاكية ، قال لهم : « ويلكم ، أخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بَشراً مثلكم ؟ قالوا : بلى . قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً فى كل موطن ، قال : فما بالكم تنهزمون ؟ فقال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم ، ومن أجل أنّا نشرب الخمر ونزنى ونركب الحرام ، وننقض العهد ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عما يرضى اللّه ونفسد فى الأرض . فقال : أنت صدقتنى » .

وسأل هرقل - هذا - رجلاً كان قد أُسِرَ مع المسلمين فقال : أخبرنى عن هؤلاء القوم ، فقال : أخبرك كأنك تنظر إليهم ، هم فرسان بالنهار رهبان بالليل ، لا يأكلون فى ذمتهم إلا بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على مَن حاربوا حتى يأتوا عليه ، فقال : لئن كنتَ صدقتنى ليملكن موضع قدمىّ هاتين .

ووصف رجل من الروم المسلمين لرجل من أمراء الروم فقال : جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولاً عتاقاً ، أما الليل فرهبان وأما النهار ففرسان ، يريشون النبل ويبرونها ويثقفون القنا ،

لو حدثت جليسك حديثاً ، ما فهمه عنك [1] لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر ، قال : فالتفت إلى أصحابه وقال : « أتاكم مَن لا قِبَل لكم به » .

إن أمتنا انتصرت قديماً على اليهود وطهُرت جزيرة العرب من شرهم ، لأنها كانت الأمة الأقوى إيماناً وأخلاقاً .

كان اليهود أحرص الناس على حياة - كما وصفهم القرآن - وكنا أحرص الناس على الموت فى سبيل اللّه .

كانوا - كما وصفهم اللّه : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [2] .

وكنا كما خاطبنا اللّه تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ [3] .

كانوا كما خاطبهم القرآن : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [4] .

وكنا كما وصف اللّه المؤمنين : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ [5] .

كانوا : ﴿ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [6] .

---

(١) كتاب « إلى الإسلام من جديد » تأليف السيد أبو الحسن الندوى ص ٦٣ ، ٦٤ ، دار الإرشاد « بيروت » (٢) الحشر : ١٤ (٣) آل عمران : ١٠٣
(٤) البقرة : ٧٤ (٥) الأنفال : ٢ (٦) المائدة : ٧٩

وكنا كما خاطبنا ربنا : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

كانوا يعبدون الذهب ، حتى إنهم عبدوا عجلاً اتُخذ من حلى . وكنا نعبد اللّه وحده ولا نشرك به شيئاً ، ولا أحداً .

كانوا كما خاطبهم الحق تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ (٢) .

وكنا كما خاطبنا جلّ جلاله : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ (٣) .

كانوا يأكلون الربا وقد نُهُوا عنه ، ويأكلون أموال الناس بالباطل . وكنا نحرِّم الربا قليله وكثيره ، ونخاف الدرهم الحرام ، واللقمة الحرام . فإن كل ما نبت من حرام فالنار أولى به .

كانوا يقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقِسْط من الناس ، وكنا نحن حماة الرسالات ، والذائدين عن حمى الدعوات .

أما الآن .. فقد تغيرت أنفسنا عما كانت عليه . وأصابنا رذاذ من أخلاق اليهود ورذائل اليهود . الحرص على الحياة ، التفرق ، القسوة ، الأنانية ، تحريف الكلم عن مواضعه ، الإيمان ببعض الكتاب دون بعض .. أكل الربا ، قتل الدعاة إلى اللّه ، السكوت على الفساد وعدم التناهى عن المنكر .

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) البقرة : ٨٥ (٣) آل عمران : ١١٩

فاستوينا مع اليهود فى الرذيلة والمعصية ، وكان لهم الفضل علينا فى مجالات أُخر : فى التخطيط والتنظيم وحسن التعبئة لكل القوى المادية والبَشرية .

بل أقول : إن اليهود قد سرقوا بعض أخلاقنا وبعض فضائلنا . فى الوقت الذى نقلوا هم إلينا رذائلهم القديمة أو نقلناها نحن راضين مختارين ، بعد أن حقنوها بالحقن الفكرية المخدرة التى تجعلنا نستسلم لكل ما يصنعونه لنا من أزياء و« مودات » لنسائنا مما عند الركبة ، وفوق الركبة وما فوق فوق الركبة .. ومن تقاليع تدمر شبابنا ، وتميت فيهم كل روح للخشونة والجهاد .

إن اليهود الذين عُرِفوا بعبادة الذهب أصبحوا يبذلون الملايين عند الحاجة لتحقيق فكرتهم وبناء دولتهم . وأغنياؤنا مشغولون بالرحلات المترفة إلى أوروبا وغيرها حيث ينفقون مئات الألوف على اللهو والفراغ والعبث والمجون ، أو الدعاية الجوفاء ، فإذا طالبتهم ببذل دفعوا لك دراهم معدودات ، لا تُسمن ولا تُغنى من جوع !!

إن اليهود « الجبناء » قد دربُّوا أبناءهم - بل وبناتهم - على أن يكونوا جميعاً حين يدوى النفير جيشاً مقاتلاً . لا يتخلف منهم أحد ، وأبناؤنا وبناتنا - نحن المهزومين - مشغولون بأغانى هادية وصباح وعبد الحليم حافظ !!

فلا غرابة بعد ذلك إذا خذلتنا رذائلنا ، وانتصر اليهود علينا

فإنما هو انتصار للقوة على الضعف ، وللنظام على الفوضى . وللبذل على البخل ، وللجد على الهزل ، وللعمل على الفراغ .

* * *

● تعبئة تنادى بها جميع الفئات :

إن التعبئة الدينية الأخلاقية للشعب وللجيش أصبحت أمراً ينادى به جميع الفئات الواعية من العرب والمسلمين .

ولا زال فى آذاننا صوت وكيل الخزانة فى القاهرة الذى وقف يقول فى أحد المؤتمرات : « لا بد من إدخال الدين فى المعركة ، فإن اليهود يقاتلوننا انتقاماً لهزيمتهم فى خيبر ، وغيرها » .

فهو رأى لم يدع إليه علماء الدين فحسب بل دعا إليه رجال مدنيون فى جميع القطاعات ، ولم ينادِ به المدنيون فحسب ، بل نادى به القادة العسكريون أيضاً .

فهذا القائد الأردنى السيد « عبد اللّه التل » ، يرسم سبيل النجاة كما يراه فى قضية فلسطين [1] فيقول :

أولاً : يجب أن نخوض معركة فلسطين على أساس الجهاد الدينى ، ذلك لأن فلسطين بلد إسلامى مقدس ، كل شبر فيه ممزوج

---

(١) فى كتابه : « خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية » .

بدماء الصحابة والمجاهدين ، يضم المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، الذى أسرى بالنبى الكريم إليه . ويضم مسجد الصخرة ، ومئات المساجد والمقامات الإسلامية الأثرية المقدسة ، ويضم كذلك المقدسات المسيحية وأهمها قبر المسيح ومهده .

ثانياً : إن فلسطين ليست بلداً عربياً اغتُصب فحسب ، وإنما هى بلد إسلامى بالدرجة الأولى ، لأنها تُعَد مهوى أفئدة ٧٠٠ مليون مسلم ، يقدسونها كما يقدسون مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة . وهى ليست ملكاً لعرب فلسطين وحدهم ولا للأمة العربية وحدها وإنما هى ملك جميع المسلمين ، وواجب الدفاع عنها فرض عَيْن على كل مسلم على وجه الأرض » .

بل أقول : إن هذه التعبئة لم يدع إليها المسلمون وحدهم ، بل دعا إليها الواعون المخلصون من المسيحيين العرب أيضاً .

يقول الكاتب العربى المسيحى الأستاذ « حبيب جاماتى : « لقد حان الوقت لكى تركز الدعاية العربية ضد الصهيونية على المشاعر الدينية ، بعدما ظلت إلى الآن مركزة على نواح كثيرة أخرى ما عدا الدين .

« إن الدعوة الصهيونية قامت على الفكرة الدينية وعلى الشعور الدينى وعلى التعصب الدينى ، وعلى إثارة النعرة الدينية دون

غيرها من النعرات ، وما الناحية العنصرية فى تلك الدعوة غير مظهر من مظاهر التعصب الدينى . ففى الشرق الأدنى الآن بقعة من الأرض العربية سرقها اليهود باسم الدين ، وأنشأوا فيها دولة قائمة على الدين ولا يزالون يبثون فى أنحاء العالم دعايتهم المنبعثة من الدين ..

« وبناء على أن مقاومة السلاح بمثله من البديهات التى لا تتطلب تفكيراً ، ولا تستحق جدلاً .. وبناء على أن العرب حتى الآن قد بنوا دعايتهم المضادة لدعاية اليهود على أسس وحجج ودعائم وحقائق سياسية واقتصادية واجتماعية وتاريخية تاركين الناحية الدينية جانباً ، فإن الحالة الخطيرة التى وصلت إليها قضية فلسطين من جراء ذلك كله تتطلب الآن أن يعمد العرب إلى نفس السلاح الذى استخدمه اليهود ضدهم .. وهو إثارة النعرات الدينية ليقابلوا بها النعرة الدينية اليهودية »[1] .

وهذه الكلمات الصريحة الناصعة تبطل كل حُجَّة لأولئك الذين يريدون إبعاد الدين وإخفاءه مجاملة لإخواننا النصارى الذين قد يسوءهم ذكر الإسلام ، وتعبئة المشاعر باسمه وتحت رايته . وما أصدق ما قاله السياسى المصرى « مكرم عبيد » : أنا نصرانى ديناً مسلم وطناً .

* * *

(١) مجلة الشبان المسلمين - القاهرة - عدد إبريل سنة ١٩٦٤

● الدين غاية تُقصد لا أداة تُستغل :

وأود أن أنبه هنا أننا لا نريد استغلال الدين لمعركة وقتية ثم نرمى به فى سلة المهملات بعد ذلك . أى اتخاذ الدين مطية لغرض موقوت لا غاية فى نفسه . فإن هذا إهانة للدين ، وانحطاط برسالته فى الحياة ، والدين الذى يُتخذ أداة لكسب سياسى لا يثير نفسية شعب . على أن شعبنا ذو حساسية مرهفة من هذه الناحية . فما أن يشعر بأن الدين مستغل للسياسة والسلطان حتى ينفر من المتمسحين به ، والمتحدثين باسمه ، وهنا لا يفيد استخدام الدين سلاحاً فى المعركة كما يُراد له .

ولهذا فنحن لا نريد التمسح بالدين على طريق التصنع والتمثيل والشعوذة ، وإنما نريد عودة حقيقية إلى الدين ، ورجوعاً حقيقياً إلى اللّه ، تزكو به الأنفس وتطهر الأيدى ، وتنظف به الحياة ، وتستقيم الأخلاق والمشاعر والأفكار والأعمال .

إن الناس - مع اللّه - أصناف ثلاثة :

خيرهم الذى يعرف اللّه فى السرّاء فيعرفه تعالى فى الضرّاء والبأساء ، كما فى الحديث : « احفظ اللّه يحفظك ، احفظ اللّه تجده تجاهك ، تعرَّف إلى اللّه فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

ودون ذلك الذى ينسى اللّه فى الرخاء والعافية فإذا صدمته النوائب أفاق من سكرته ، وصحا من غفلته ، ووقف على عتبة ربه

منيباً إليه ضارعاً يقول : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

وفى المشركين أنفسهم كثير من هذا الصنف الذى وصفه القرآن فأحسن الوصف إذ قال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) .

فقد نسى هؤلاء فى ساعة الكربة ، آلهتهم وأصنامهم ولم يذكروا إلا اللّه وحده .

وشر الأصناف الثلاثة : ذلك الذى عمى قلبه وطمست بصيرته ، فلم يعرف اللّه فى رخاء ولا شدة ، ولم يذكره فى سعة ولا ضيق ، ولم يقرع بابه رغم ما نزل به من ضرر وما حلّ بساحته من بلاء جدير بأن يوقظ قلبه ، ويذكره به ، ولكن لم تغنه الآيات والنُذُر .

فهذا الصنف هو الذى جاء فيه قول اللّه سبحانه : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُواْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الأعراف : ٢٣ (٢) يونس : ٢٢ (٣) المؤمنون : ٧٥ - ٧٦

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ونحن لا نرضى أن نكون شر الأصناف الثلاثة ، فإذا لم نكن خيرها وأفضلها فلنكن الصنف الثانى الذى يتعلم من أيام الله ، ويزدجر بالحوادث والقوارع فيرجع ويتوب .

إن الله لا يُنزل البلاء بالناس رغبة فى تعذيبهم والانتقام منهم ، كلا ، إنما هو لون من الأدب الإلهى لهم ليتوبوا ويستقيموا ، وإنذار لهم ليفيقوا ويهتدوا كما قال سبحانه : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) .

فالله تعالى لا يؤاخذهم بكل ما كسبوا من ظلم ، ولا يذيقهم كل ما عملوا من إثم : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ (٣) ، ولكن يذيقهم : ﴿ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ ﴾ (٤) ولماذا ؟ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الأنعام : ٤٢ - ٤٣
(٢) الروم : ٤١
(٣) النحل : ٦١
(٤) الروم : ٤١

فإذا لم ترجع الأمة إلى ربها بعد نكبة ونكبتين ، وطامة وطامتين فمتى ترجع ؟ ومتى تثوب ؟

ترى هل نحن فى حاجة إلى نكبة أخرى ، أو نكبات أُخر ، ليصحوا السكارى ويتنبه الغافلون ، ويجد الهازلون ، ويهتدى الضالون ؟

أليس من المحزن أن لا تزال الأقلام الملحدة تناوش الدين ، وتتطاول على ذات اللّه تعالى وذات رسله ؟

بلى ، وقد قرأنا فى كتاب لأحد التقدميين جداً [1] أسماه « من النكسة إلى الثورة » قال فيه :

« إن العالم سيجد نجاته - إن كان من الممكن ذلك - عن طريق المتمردين ، فبدونهم ستلقى حضارتنا وثقافتنا وكل ما نحب نهايته .. فهؤلاء المتمردون هم ملح الأرض ، ومسئولون عن اللّه ، لأننى مقتنع بأنه لم يوجد بعد ، وإن كان علينا أن نخلقه » .

فهل تنتصر أمتنا بهؤلاء الثوريين المتمردين على اللّه وعلى شرائعه ورسالاته ؟ أم نسير من نكسة إلى نكسات ، ومن كارثة إلى كوارث ؟

---

(١) نديم البيطار .

أليس من المخجل أن تظل هذه الأفكار تجد مَن ينشرها ومَن يقرأها بعد أن قرعتنا النُذُر ، وجاءنا من الأرزاء ما فيه مزدجر ؟

إن هؤلاء الثائرين « على الله » ، « المتمردين » على القِيَم العليا ، الخارجين على الأمة ، المرتدين عن صراطها .. لم يكونوا - ولن يكونوا - يوماً رجال فداء ولا أبطال قتال .

ولن تتحرر فلسطين وينتصر العرب بهؤلاء أبداً .

لن تتحرر فلسطين وتزول إسرائيل بتاركى الصلوات ومتبعى الشهوات .

لن تتحرر فلسطين بالعابثين من شُرَّاب الخمور وعُشَّاق الفجور .

إنى على يقين أن إسرائيل لن تزول ، وفلسطين لن تتحرر ، إلا على أيدى المؤمنين الصادقين ، الراكعين الساجدين ، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والحافظين لحدود الله . الذين يخوضون المعارك أطهاراً متوضئين ، قد توضأت قلوبهم قبل أن تتوضأ أعضاؤهم .

أولئك الذين لا يقف لهم أحد ، ولا تصمد أمامهم قوة إذا نادى فيهم المنادى : هبى يا ريح الجنة . يا نصر الله اقترب . يا رجال القرآن زيِّنوا القرآن بالفعال .

أولئك الذين يثورون على التفكير المادي ، ويسخرون من لغة

الأرقام ، ولا يعبأون بما لدى العدو من « كم » واثقين بما معهم من « كيف » ، قد اتسع أفقهم فتجاوزوا الأرض إلى السماء ، وتخطوا عالَم الشهادة إلى عالَم الغيب . وآمنوا بأنهم إن فقدوا ولاية الناس ونُصرة العالَم ، فإن معهم اللّه جلّ شأنه ﴿ وكَفَىٰ باللّه وَلِيّاً وكَفَىٰ باللّه نَصيراً ﴾ (١) ومعهم جنود اللّه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَا هُوَ ﴾ (٢) أولئك هم الذين ستتحرر بهم فلسطين ، وتُقتلع بهم جرثومة اليهودية من أرض الإسلام ، ليس لهؤلاء هدف إلا إعلاء كلمة اللّه ، ولا عنوان إلا الإسلام ، ولا شعار إلا العبودية للّه ، ولا هتاف إلا « اللّه أكبر » .

وإلى هؤلاء المحاربين المؤمنين أشار رسولنا ﷺ في حديث له حيث قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبىء اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر : يا مسلم .. يا عبد اللّه .. هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله .. » (٣) .

هؤلاء هم قتلة اليهود ومحررو فلسطين . إنهم « المسلمون » لا الأردنيون ولا السوريون ولا الفلسطينيون ولا العرب ، فقد تخلوا عن هذه العناوين ، ولم يبق لهم عنوان إلا « المسلمون » .

---

(١) النساء : ٤٥ (٢) المدثر : ٣١ (٣) رواه مسلم .

هؤلاء هم الذين تكون الطبيعة كلها فى صفهم حتى الحجر والشجر .

هؤلاء هم الذين يناديهم الحجر والشجر : « يا مسلم » . « يا عبد الله » .

فليس لهم راية إلا الإسلام ، وليس لهم شعار إلا العبودية لله وحده .

هذا هو المقاتل الذى ترتجيه الأمة ، وهو الذى سيزيل مُلك إسرائيل والذى سيقتل اليهود ، وكما نبأنا مَن لا ينطق عن الهوى . إنه « المسلم » .. المسلم الذى خالطت قلبه بشاشة الإيمان ، واتقدت بين جوانحه شعلة اليقين ، وباع الحياة الدنيا بالآخرة . وليس المسلم « الجغرافى » الذى ورث الإسلام من أبويه كما ورث اسمه ولقبه . فليس له من الإسلام إلا العنوان والتسجيل فى شهادة الميلاد .

إنه « عبد الله » ، أما عبد الشهوات ، عبد المرأة ، عبد الكأس ، عبد الدينار والدرهم ، عبد المبادىء المستوردة من صناعة اليهود ، عبد الأفكار الدخيلة التى يتحفنا بها اليهود ، وفروخ اليهود .. أما هذا فلن يتحقق به نصر ، ولن تتحرر به أرض ، ولن ترتفع به لأمتنا راية ، وليس من ورائه .. إلا النكسات والوكسات ..

* * *

● التعبئة الفكرية :

ومع التعبئة الإيمانية والأخلاقية لا بد من تعبئة فكرية .

لا بد من تثقيف الأمة حتى تعى حقيقة نفسها ، وحقيقة عدوها .

إن الأمة لا تنتصر إلا إذا أدركت درجة من الوعى بذاتها ، يكشف لها عن مشخصاتها وعن رسالتها وأهدافها ، وما يميزها عن عدوها .

وضد هذا الوعى هو الغفلة ، التى جعل القرآن أصحابها أضل من الأنعام سبيلاً ، وأخبر عنهم بأنهم حطب جهنم ، ووقود للنار : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ (١) .

والمسلمون الأوائل كانوا أبعد الناس عن « الغفلة » وأوفاهم حظاً من « الوعى » الذى سماه القرآن « الفقه » أو « العقل » .

كان المسلمون يعرفون مَن هم ، وما غايتهم ، وما رسالتهم على ظهر الأرض ، ومَن هو عدوهم الذى يقاتلون .. وكان مقاتلوهم

---

(١) الأعراف : ١٧٩

لا يفهون شيئاً من ذلك إلا ما يُصَب فى آذانهم تلقيناً كأنهم الببغاوات .

والذى يقرأ القرآن الكريم تتضح له هذه الحقيقة جلية ناصعة فها هو يخاطب الرسول بعد غزوة « بدر » ، فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِن يَكُنْ مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّن الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

علل غلبة المؤمنين على الكفار ، رغم قلة عدد المؤمنين (١ : ١٠) بأن الكفار قوم لا يفقهون ، فهى غلبة مفهومة ، جارية على سنن الله فى كونه .

ويخاطب المؤمنين فى شأن اليهود فيقول : ﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورهم مِّن اللَّه ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ * لا يُقَاتِلُونَكُم جَمِيعاً إِلا فِى قُرىً مُّحَصَّنَةٍ أَوْ من وَرَاءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

ولقد رأينا مصداق ذلك فى فتوح الإسلام وشاهدنا الأعرابى

---

(١) الأنفال : ٦٥ (٢) الحشر : ١٣ - ١٤

البسيط الذى لم يتخرج فى مدرسة ، ولا اختلف إلى المعلمين يقول لرستم قائد الفُرس وقد سأله : مَن أنتم ؟ فيقول بملء فيه : نحن قوم ابتعثنا اللّه لنخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

هذا هو « الفقه » الذى تنتصر به الأمم وتعلو كلمتها ، وهو فقه لا ينبت ولا ينمو إلا فى ظلال الإيمان وأخلاق الإيمان .

فإذا انقلبت الأوضاع وأصبح المسلمون أقل فقهاً وأضعف وعياً ، وبات أعداؤهم أكثر منهم وعياً ، وأنضج فكراً ، فلا بد أن يميل الميزان ويتغير اتجاه الريح ويصير الظفر للذين يعون ويفقهون ، لا للذين يصيحون ويهرجون ، والموتى الذين لا يشعرون أيّان يُبعثون .

إن التعبئة الفكرية لا تكون بالثقافة المسمومة التى يُصدِّرها إلينا اليهود وتلاميذ اليهود ، من أمثال « فرويد » و« دوركايم » و« ماركس » و« لينين » [1] و« سارتر » وغيرهم من الأصنام المعبودة عند « التقدميين » من كُتّابنا ومثقفينا ..

---

(١) انظر : فصل « اليهود الثلاثة » من كتاب التطور والثبات فى حياة البَشرية للأستاذ محمد قطب ، وراجع كذلك « الصهيونية العالمية » للأستاذ عباس محمود العقاد .

إن هذه البضاعة اليهودية الملوثة ليست هى « الفقه » الذى ننشده لأمتنا ولا الثقافة التى نرتجيها إليها .

ومن المحال أن نطلب من الأمة التحرر من براثن اليهود ، فى الوقت الذى تتتلمذ فيه على أفكار اليهود ، وثقافة اليهود ، ونزعم لأنفسنا حرية الفكر ، ونحن لهذا الفكر الأجنبى الغازى أسارى بل عبيد .

فإذا كنا نريدها تعبئة فكرية حقاً ، فلنحرر مصادر معرفتنا من آثار الاستعمار الفكرية ، وآثار الصهيونية الفكرية المخزية . وإلا كانت تعبئة كفرية ، لا تعبئة فكرية .

ومن التعبئة الفكرية التى نريدها أن تعرف أمتنا الأشياء كما هى دون غلو ولا تحريف . وتعرف عدوها كما هو بلا مبالغة ولا تزييف .

ومن صور التزييف والتهريج .. أن أكثر أجهزة الإعلام فى بلادنا ، تحاول التقليل من شأن عدونا ، والتهوين من أمره ، فهو دائماً فى أزمة اقتصادية آخذة بالخناق ، وفى أزمة سياسية وخلاف وانشقاق ، وهو دويلة تقوم على الشحاذة والتبرعات من أيدى المحسنين .

وهو مجتمع تهدده التناقضات الداخلية بالتفسخ والانهيار .

وهو .. وهو .. إلى آخر ما قرأناه وما سمعناه .

وهذا اللون من التفكير لا يثمر إلا تضليل الأمة عن حقيقة عدوها ،

وحقيقة طاقاته وإمكاناته ، ومثل ذلك مَن يضخم من شأن العدو ، ويجعل من الحبة عنده قبة ، ومن القط جملاً ، وكلا الطرفين مذموم . وأولى بنا أن نعرف العدو كما هو ، وعلى حقيقته ، بلا تكبير ولا تصغير ، ولا تهويل ولا تهوين .

إن التضخيم من شأن العدو قد يصيب بعض النفوس باليأس أو بالفزع .

كما أن التهوين منه قد يؤدى إلى الغرور بالنفس ، والاستهتار بالعدو ، وعدم الاستعداد الكافى له ، وأخذ الحذر اللازم منه .

ولقد جرّبنا هذا التهوين فلم نجن من ورائه ثمرة ، ظللنا سنين طويلة نقول : إسرائيل « المزعومة » ، ثم خجلنا من أنفسنا بعد ذلك ، حين رأينا هذه المزعومة تتحدى وتناوش الجبهات العربية كلها ، تلطم هذه وتركل تلك ، فاضطررنا إلى حذف كلمة « المزعومة » من قاموس الصحافة والإعلام عندنا ، وأوشكنا أن نكون نحن « المزعومين » !

ومن التعبئة الفكرية : أن نعرف مَن صديقنا ومَن عدونا بين الأمم والشعوب ، فقد وجدنا دولة إفريقية تفتح صدرها وأرضها لإسرائيل ، وخبراء إسرائيل ، وتفتح أسواقها لبضائع إسرائيل ، لتخفف عنها ضغط الحصار الاقتصادى العربى ، وتبعث بجنود « الكوماندوس » ليُدرِّبوا فى إسرائيل ، وتصبح أرضها المنطلق

المأمون لشبكات التجسس الإسرائيلى .. ومع هذا كله وما هو أكثر منه ، ومع ما تقوم به هذه الدولة من اضطهاد وتنكيل للأكثرية المسلمة التى تزعمها أقلية . وهو اضطهاد همجى لا نظير له على وجه المعمورة اليوم .. مع كل هذا ورغم هذا لا تزال هذه الدولة صديقة لكثير من دول العرب . ولا يزال إمبراطورها صديقاً لبعض حكام العرب ، ولا زال يُدعى إلى العواصم العربية فيُقابَل بالحفاوة والترحاب اللائقين بجلالته الإمبراطورية ، وبالصداقة العربية الأثيوبية ، دون أدنى وفاء أو مجاملة للثوار العرب المسلمين المجاهدين فى أرتيريا العربية المسلمة التى تقاتل وحدها (منذ سنة ١٩٦١) ولا تجد من حكوماتنا عوناً ولا نصيراً . ثم بعد ذلك نزعم أننا عرب ، وأننا أيضاً مسلمون !

فمتى نعرف عدونا من صديقنا ؟ لقد قال العرب قديماً : « صديق عدوك عدوك » وقال الشاعر :

جزى اللّه الشدائد كل خير عرفتُ بها عدوى من صديقى

ولكن الشدائد القاهرة التى مرت بنا لم تكفنا لنتعلم منها ، ولنعرف مَن عدونا ؟ ومَن صديقنا ؟

إن الشعوب الإسلامية كلها صديقتنا فى قضيتنا . أستغفر اللّه ، بل هى أمتنا التى لها ننتمى وإليها نوجه الحديث . إن قضية فلسطين هى قضية المسلمين على وجه عام ، وقضية العرب على

وجه خاص ، وقضية الفلسطينيين على وجه أخص . والذى يريد قصر قضية فلسطين على العرب بحكم القومية العربية كالذى يريد قصرها على الفلسطينيين - بحكم الوطنية الإقليمية - وقديماً سئل رئيس وزارة مصرى عن قضية فلسطين فقال بصراحة : أنا رئيس وزراء مصر لا رئيس وزراء فلسطين ..

ومن غرائب التفكير فى قضية فلسطين إصرار بعض الناس على جعلها قضية عربية لا تهم إلا العرب وحدهم ، وليس من حق المسلمين - فى زعمهم - أن يتخذوا منها موقفاً إيجابياً ، وأن يقولوا : إن القضية تعنينا أيضاً ، وكتب بعض الصحفيين فى ذلك كلاماً لا يستحق أن يُسمع فضلاً أن يُعاد .

ولا أدرى بأى منطق هؤلاء يتكلمون ؟ وكيف غضبوا لأن باكستان وتركيا أو غيرهما غضبت لعدوان اليهود . وقالوا : إن المسجد الأقصى حرم لنا وفلسطين جزء من وطننا الإسلامى .

فيا عجبا كل العجب .. إن جميع اليهود فى الدنيا القديمة والجديدة يعتبرون إسرائيل دولتهم ، ويعدون قضية الصهيونية قضيتهم ، ويبذلون لها من أموالهم وأنفسهم ما يبخل به كثيرون من قومنا ، وهم مع ذلك ، جنسيات مختلفة وعناصر متباينة تعيش فى أوطان متباعدة ، بين الشرق والغرب ، لا يجمعهم جامع إلا الديانة اليهودية ، ولم يتهمهم أحد بأنهم رجعيون متخلفون يفكرون بعقلية دينية ، ويتجمعون على أساس الرابطة الدينية .

فلماذا يُراد للمسلمين وحدهم أن يعزلوا أنفسهم عن قضية إخوانهم فى فلسطين ؟ وبأى حق تحرم مسلماً باكستانياً أو صومالياً أو أندونيسياً يعتقد أن العرب إخوانه ، وأن المسجد الأقصى ثالث حرميه ، من المشاركة فى الجهاد لأجل اعتقاده ، بدعوى أن قضية فلسطين عربية قحطانية ؟

ولقد رأيت بعينى رأسى المسلمين فى تركيا عقب النكبة الأخيرة ، رأيتهم يتحرقون شوقاً إلى الجهاد لنصرة إخوانهم المسلمين العرب والانتقام من أعداء الله اليهود . وهذا برغم ما يبذره الاستعمار بين الأشقاء المسلمين من بذور الشك وسوء التفاهم .

* * *

● إسلامية القضية ضرورة للتعبئة :

ومن ضرورة التعبئة الإيمانية والفكرية : أن نربط قضية فلسطين بأصلها الأصيل وهو الإسلام كما هو الواقع ، وننقلها من الإطار الوطنى أو القومى الضيق إلى الإطار الإسلامى الرحب .

وربما يظن بعض المتعلمين أن مما يضر بقضيتنا أمام دول العالم المتحضر أن نصبغها بالصبغة الإسلامية . فإن العالم اليوم لم يعد يسمع لنغمة الدين أو يطرب لها . وسيرمينا حينئذ بأننا قوم رجعيون متخلفون ، فلنكتف إذن بجعلها قضية عربية .

ومن سوء حظ الذين يقولون هذا الكلام أن إسرائيل إنما تقوم

على الأسس الدينية ، أو على الأقل تقيم لها الاعتبار الأول فى دعايتها الخارجية ، وفى تعبئتها الداخلية .

يقول « حايم وإيزمان » فى مذكراته (ص ١٧) :

« ولقد قابلت لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذى بادر بسؤالى على الفور : لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومى فى أوغندا ؟ وقلت لبلفور : إن الصهيونية حركة سياسية قومية ، هذا صحيح ، ولكن الجانب الروحى منها لا يمكن إغفاله ، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحى فإننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسى القومى » .

قال هذا وايزمان ولم يتهمه أحد فى العالَم المتحضر بالرجعية ولا التعصب .

ولقد جربنا أكثر من عشرين سنة ونحن نسكب فى مسامع العالم المتحضر أن فلسطين أرض عربية اغتصبها الاستعمار والصهيونية فهل أغنى ذلك عنا شيئاً ؟ وهل وجدنا مَن يسمع لنا ؟ أو يتحمس لنصرتنا ؟ كلا .

والسر فى ذلك ما قاله السيد عبد اللّه التل :

« سيظل الغرب المستعمر يهزأ بنا ويسخر منا ما دمنا نعالج مشكلة فلسطين ، على أساس أنها أرض عربية اغتصبها

الاستعمار والصهيونية ، ذلك لأن منطقنا هذا لا تقبله شعوب أمريكا التى تكونت من الطلائع الأولى للاستعمار والاغتصاب فى العالم ، وعاشت حياتها كلها تستحل مال سواها ، وتغتصب أملاك غيرها من الشعوب الضعيفة . وحجتنا هذه لا تقنع شعوب أوروبا التى عاشت - ولا تزال تعيش - على حساب غيرها ، وتشارك شعوب أمريكا فى تمجيدها للاستعمار ، فشعوب أوروبا وأمريكا لا ترى أى جرم فى أن يحتل اليهود المتمدنون (!!) بلاد العرب المتوحشين ولا ترى غضاضة فى أن يبيد اليهود عرب فلسطين ، كما أباد الأمريكان الهنود الحمر . وحينما نغير الخطة ونوجه سير المعركة وجهة أخرى ، ونعلن أن فلسطين ليست أرضاً عربية فحسب ، وإنما هى ملك . . ٧ مليون مسلم يفتدونها بالأرواح والمهج ، لأنها أرض مقدسة ، تربطهم بها روابط دينية وتاريخية ، أقوى من رابطة بضعة ملايين من اليهود بفلسطين ، عندها ترجح كفتنا ، ويصبح زمام الأمر بأيدينا » [1] .

ولكن هذا يقتضى منا أن نعلن ونحتضن « إسلامية » القضية لا مجرد عروبتها . وقبل إسلامية القضية لا بد أن نعلن ونتبنى إسلامية المجتمع والحكم والفكر لا قوميته واشتراكيته أو ليبراليته ،

---

(١) من كتاب « خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية » .

ولا بد أن ندعو ونعمل لتحقيق « التحول الإسلامى » للمجتمع بدلاً من « التحول الاشتراكى » وغيره من المفاهيم والشعارات .

وبغير هذا لن نجد « المسلمين » الذين ينتصرون لقضيتنا التى هى فى نظر الإسلام قضيتهم . إذ الإسلام يجعل كل شبر فى الأرض الإسلامية وطناً للمسلم يفديه بالنفس والنفيس .

ومن هنا يتضح لنا مدى الارتباط والتلازم بين قضية فلسطين وقضية الإسلام نفسه . إن قضية فلسطين لا تنفصل أبداً عن قضية الإسلام الكبرى ، باعتباره فكرة وعقيدة ومنهج حياة ورابطة تجمع ، وشريعة تحكم المجتمع بهداية اللّه . فلولا ضعف الإسلام فى نفوس أهله وفى حياتهم ، وفى حكوماتهم العلمانية المختلفة ما استطاعت الصهيونية أن تجد لها وطناً فى قلب دار الإسلام .

ويوم تعالج قضية الإسلام نفسها ، ستعالج معها - حتماً - قضية فلسطين وكل قضايانا المعلقة .

ويوم يسود الإسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه ومفاهيمه ، ومشاعره وشعائره ، وآدابه وتقاليده ، وتتجسد هذه كلها فى مجتمع مهما يكن صغيراً فى حجمه وفى رقعة أرضه ، وفى حكم يقود هذا المجتمع باسم اللّه .. يومئذ لا تستطيع إسرائيل أن تبقى ولا أن تعيش .

فإذا كان أبناء فلسطين ، وإذا كان العرب ، وإذا كان المسلمون حريصين على تحرير فلسطين وطرد أعداء الله وأعدائهم من أرضها ، فليحرروا أنفسهم أولاً من العبودية لغير الله ، ومن اتباع غير هداه ، وليصمموا صادقين على العودة إلى الإسلام . فهذا هو أضمن طريق - وإن كان أشق طريق - لاستنقاذ فلسطين .

وإذا كانت قضية الإسلام ذاته لا تستحق أن تحظى بتفكيرهم ولا اهتمامهم ولا جهادهم ، وكانت العقيدة أهون عندهم من الأرض ، والشريعة أرخص من التراب ، فهيهات أن يتنزل عليهم نصر الله الذى وعد به المؤمنين .

لقد قال « هرتزل » فى المؤمر الصهيونى الأول لزعماء قومه : « إن عودتنا إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية » !

وإذا كان المؤمن ينتفع بالحكمة ولو من فم عدوه فعلينا أن نقول لقومنا : إن عودتنا إلى فلسطين يجب أن تسبقها عودة إلى الإسلام .

* * *